تأملات :

من الســـــاخر !؟

للأستاذ عبد العزيز الكردانى

ذات يوم .. ركبت ترام « المترو » فى رفقة صديق له مثل اتجاهاتى ونظراتى وتأملاتى فى الناس وفى الحياة . وكان الوقت مساء .. وكانت الأضواء الباهتة تترنح سكرى فى سدفة الليل .. وكانت النسمات لينة تنفذ إلى الرئتين فى رفق ودعة ، فتستجيش انفعالات وخواطر شتى !

ولما بلغنا فى الطريق إلى منتصفه ، أشار صديق خفية إلى رجل يجلس قبالتنا .. وهمس فى أذنى قائلا : « انظر ..! »

... ونظرت .. فإذا شيخ هِمٌّ أرسل لحيته الكثة إرسالا طريا مستبشعاً ، فبدت كأنها دغل كثيف منتن . وكان الشيخ فى أسماله الحائلة الرثة ، ووجهه القـذر المتغضن ، وفمه الفاغر ، ونظراته الشاخصة ، قابعاً فى غفلة وتبلد أشبه ما يكون بركام مطرح من قذر وعفونات !

قال صديقى بعد فترة من النظر المتأمل إلى وجه هذا المسخ الآدمى « أترى إلى هذا (الشىء !) ؟! أتراه يكون (إنسانا) ؟! »

.. قالها صديقى ، ولم يكن يرمى إلى الزراية بهـذا التعس .. ولا كان يقصد إلى اصطناع السخر منه .. وكل ما كان يبتغيه هو أن يفصح — فى صدق — عن حقيقة تجسمت أمام ناظريه !

... وافترقنا .. وطوت الذاكرة هذا المشهد فيما طوته من مشاهد ، وإن تحصّل فى نفسى راسب منه ، لم يكن من اليسر أن تلمه النسيان ومرور الأيام من واعيتى الباطنة ... حتى كان يوم من أيام هذا الشتاء الجهم لقيت فيـه صديقى .. فتذاكرنا سوياً هذا المشهد ، واسترجعنا فى خيالنا صورة ذلك الشيخ . ثم خلفت صديقى ، ومضيت إلى دارى . وهنالك — حين خلوت إلى نفسى — وجدتنى أردد هذه العبارة : «من .. من الساخر؟!» ؛ ثم وجدت ما هو ينبثق عن خواطر .. رأيت أن أسجلها فى هـذه القطعة الفنية ، التى أقدمها لصديقى .. شريكى فى النظر والتأثر — هدية متوائمة .. طالباً منه أن يعمل الفكر والحس والشعور فى مضمونها وفحواها .. ثم أسأله — بعد ذلك — أن يتحرى أن يحاول مطابقة الراسب المتحصل فى نفسه بتأثير هذا المشهد ، بالراسب الذى أوحى إلىّ هذا الـكلام :

« .. من ؟! من يكون الساخر فى هذى الحياة ؟!

أتراه يكون ذلك الشيخ الهم الذى طوى السنوات الطوال — وما زال يطويها — لا يدرى من أمر خلقه شيئاً .. لا يعلم للحياة غاية إلا أن يعيش .. ويظل يعيش !

.. لا يعرف من هدف فى الدنيا سوى أن يعمل على أن تمتد به الحياة .. ليظل يحيا .. لينسأ أجل الوفاة !

إنه ليأتدم بالخبز مختلطاً بالقذر ؛ ويطعم شرائح اللحم ممزوجة بروث البهائم ، ويكرع فى الماء الآسن ، حمئاً ذائباً فيه الطين ؛ وينام الليل الطويل على فراش من حصى وقش يابس ! إن حياته لتطرد على هذه الصورة السنين تلو السنين . وهو على حاله من طلب البقاء والرغبة الملحة فى الدوام !

أترى ذلك « الشيخ » يكون الســـاخر ؟ أم يكون هذا « الفنان » الذى انصرف عن كل شىء إلا فنه .. ونظر إلى الـكون على أنه مسرح تمثل عليه رواية ، لا يهمه من أمرها شىء .. إلا بقدر ما تشبع حاسته الفنية وتروى ...

إن كل ما فى الـكون ، إنما يتخذ قيمه وخصائصه — عنده — بهذا الفن .. هذا الفن وحده !

وإن ناساً يعيشون فى هذه الحياة ، ولا يعرفون من أمر « هذا الفن » شيئاً ، لهم — فى نظره — والعدم سواء !

إنه ليلهو عن الحيـاة فى واقعها ، بتلك الحيوات الـكثيرة المتنوعة .. وتلك العوالم العريضة الرائعة يفتقها خياله المفتن الصناع ، الذى يجد معينه الدافق — دائماً — فى عالم النفس الرحيب ، وعالم الروح الطليق !

أترى الساخر يكون ذلك « الفنان » .. أم تراه يكون هذا « الباحث » المنقب الذى سلخ جل حياته حبيس عقلـه الراصد للظواهر ، المستكنه للملائق المستورة الخفية ، والخصائص الكامنة المطوية .. تتقلب به الدنيا ، وتدور من حوله الأحداث ، ويجلل الشيب رأسه يوماً بعد يوم ... وهو لا يدرى من أمر هذا كله